

قيم الإنسان في نظر القرآن



للإنسان قصة عجيبة في النظرة الإسلامية للعالم، لم يكن إنسان الإسلام حيواناً مستقيم القامة له أظافر عريضة ويمشي على قدمين ويتكلم فقط، إنَّ هذا الموجود - في نظر القرآن - أعمق وأكثر غموضاً من أن يمكن تعريفه بهذه الكلمات.

فقد مدح القرآن الإنسان وأثنى عليه كثيراً، وذمَّه ووبَّخه أيضاً فأسمى المذائح وأسوأ المذام هي ما قالها القرآن بحق الإنسان، فضَّله على السمَّاء والأرض والملائكة، ووضعه عن مستوى الأنعام. فالإنسان - في نظر القرآن - موجود له القدرة على تسخير عالمه واستخدام الملائكة لنفسه ويمكن أن ينزل إلى أسفل سافلين.

وهذا هو الإنسان الذي عليه أن يقرر مصيره النهائي. ونبدأ حديثنا عن مدح الإنسان في القرآن تحت عنوان: قيم الإنسان.

قيم الإنسان:

1- الإنسان خليفة الله في الأرض: (وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوا أَتَجْعَلُ فِيهَا مَنْ يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ الدِّمَاءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّي أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ) (البقرة/ 30).

(وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلَائِفَ الْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ) (الأنعام/ 165).

2- إنَّ طرفية الإنسان العلمية هي أكبر طرفية يمكن أن تكون لمخلوق: (وَعَلَّمَ آدَمَ الْأَسْمَاءَ

كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى الْمَلَائِكَةِ فَقَالَ: أَقْبِلُوهُنِي بِلَأْسَمَاءٍ هَؤُلَاءِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ (البقرة/ 31).

3- له فطرة تعرف الله، يعي ربه في أعماق وجدانه، وإن كل الشكوك والجهود أمراض وانحرافات من جبلية الإنسان الأولى (وَأَذِّنْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ طُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ؟ قَالُوا بَلَى شَهِدْنَا) (الأعراف/ 172)، (فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَىهَا) (الرُّوم/ 30).

4- إن في جبلية الإنسان عنصر ملكوتي إلهي بالإضافة إلى العناصر المادية الموجودة في كل الجساد والنبات والحيوان. فالإنسان مركب من الطبيعة وممّا وراء الطبيعة، من المادة والمعنى، من الجسم والروح: (الَّذِي أَخْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلْقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِنْ سُلَالَةٍ مِنْ مَاءٍ مَهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِنْ رُوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ) (السجدة/ 7-9).

5- إن خلق الإنسان مدروسة، ولم تكن صدفة، والإنسان موجود مصطفى ومنتخب: (ثُمَّ اجْعَلْهُ مِنْ رِبِّهِ فِتْنَابَ عَالِيَهُ وَهَدَى) (طه/ 122).

6- وله شخصية حرة مستقلة، وهو أمين الله، وله رسالة وعليه مسؤولية، وطلب منه أن يعمر الأرض بعمله وإبداعه، وأن يختار أحد الطريقين: السعادة أو الشقاء.

(إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا) (الأحزاب/ 72)، (إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا * إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا) (الإنسان/ 2-3).

7- يتمتع الإنسان بكرامة ذاتية وشرف ذاتي، فقد فضله الله على كثير من خلقه ثم يتفهم واقعه ويشعر به عندما يتفهم هذه الكرامة ويشعر بها، ويعتبر نفسه أسمى من الدناءات والرزائل والشهوات والقيود: (وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا) (الإسراء/ 70).

8- يتمتع بضمير أخلاقي يدرك القبيح والجميل بحكم الإلهام الفطري: (وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا) (الشمس/ 7-8).

9- لا يهدأ إلا بذكر الله، ولا نهاية لطلباته، ويشبع من كل شيء يحصل عليه، إلا أن يتصل بذات الله الأبدية اللامحدودة: (أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ) (الرعد/ 28)، (يَا أَيُّهَا الْإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدًّا فَمُلَاقِيهِ) (الإنشاق/ 6).

10- خلقت نعم الأرض من أجل الإنسان: (هُوَ الَّذِي خَلَقَ لَكُمْ مِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (البقرة/ 29)، (وَسَخَّرَ لَكُمْ مِمَّا فِي السَّمَوَاتِ وَمِمَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا) (الجنّة/ 13)، فله الحق إذاً بأن يتصرف بكل هذه النعم بصورة مشروعة.

11- خلقه الله ليعبده ويطيعه، فواجبه إذاً إطاعة أمر الله (وَمِمَّا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِلْعِبَادَةِ) (الذاريات/ 56).

12- إن الله لا يجد نفسه إلا بعبادة الله وإلا بذكر الله، وإذا نسي ربه نسي نفسه ولا يعرف من هو ولماذا؟ وماذا يجب أن يعمل وإلى أين يذهب؟ (وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ نَسُوا اللَّهَ فَأَنْسَاهُمْ أَنْفُسَهُمْ أُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ) (الحشر/ 19).

13- وعندما يرحل عن هذا العالم، وينزاح عنه ستار البدن الذي هو حجاب الروح تتضح له كثير من

الحقائق التي تكون اليوم عليه مخفية: (فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ وَبَيَّصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ) (ق/ 22).

14- لم يعمل للقضايا المادية فحسب، ولم تكن حاجات الحياة المادية دافعه الوحيد، فهو يتحرك ويتحمس للغايات السامية أحياناً، وربّما لا يطلب من حركته وسعيه شيئاً سوى رضا الله: (يَا أَيُّسْتَهَا الذِّفْسُ الْمُمْطَمِدْنَةُ * ارْجِعِي إِلَى رَبِّكَ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً) (الفجر/ 27-28).

(وَعَدَ اللَّهُ الْمُنْزِلِينَ وَالْمُنْزِلِينَ وَالْمُنْزِلِينَ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَمَسَاكِينٌ طَائِفَةٌ فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ وَرِضْوَانٌ مِنَ اللَّهِ أَكْبَرُ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ) (التوبة/ 72).

وبناءً على ما قيل، فالإنسان في نظر القرآن موجود مصطفى من قبل الله، وخليفته في الأرض، نصفه ملكوتي ونصفه مادي، له فطرة معرفة الله، حر، مستقل، أمين الله، ومسؤول عن نفسه والعالم، مسيطر على الطبيعة والأرض والسماوات، ملهم بالخير والشر، يبدأ وجوده من الضعف والعجز ويسير نحو القوة والكمال ويسمو ولا يهدأ إلا في حضرة القدس الإلهي وبذكره، وطرفيته العلمية والعملية غير محدودة، يتمتع بشرف وكرامة ذاتية، لا صبغة مادية لدوافعه أحياناً، له حق التصرف المشروع بالنعم التي وهبها الله له ولكن عليه واجباً أمام الله.

المصدر: كتاب أنسنة الحياة في الإسلام